# ( ١٦ )
# زيارة مؤلمة

في نفس الوقت الذي ظلَّتْ فيه الأم الحنون أحلام المصري ساهرة تفكر كيف تجمع بين القلوب العاشقة ، كان هناك شيطانةٌ لم تنم ليلتها ، ساهرة هي الأخرى تقلب خطتها الجديدة على الوجه الجديد ، ياسين وأخته يارا عاشقان ، وبدر وأخته هايدي عاشقان .. نعم تلك هي الحقيقة المؤلمة للضمير.

وإنها لم تقلق بسبب ما رأته بعينيها مِن تجانس القلوب العاشقة عشقا حراما لأنهم جميعا أخوة مقبلون على الزواج بما يخالف شرع الله ، بل كان قلقها بسبب تحول مسار خططها الدنيئة .

سهرتْ الليل كله تحسب كل أمورها ، ومع أول صوت لبائع الفول بعد الفجر في الحي الشعبي كانت قد حسمتْ كل أمورها .. توصلتْ إلى قرارٍ شيطاني .. ستترك كل شيء يمضي كما يريد العاشقون ، فقد وجدتْ في ذلك أكبر ضمان لأن تكون الثروة كلها في النهاية بين يديها ويد الذين تحبهم مِن التابعين لها ، ثم لماذا تكون هي العذول الذي يفرق بين العاشقين؟

وماذا إنْ منعتْ زواج الأخوة لتسلك طريقها الأول مع خطتها الأولى؟ .. في نهايته ستكون الأملاك لابنها بدر الذي لا بد أن يتزوج يوما مِن امرأة غريبة غير مضمونة الجانب تشاركه في ثروته ، وفي نفس النهاية ستتزوج ابنتها هايدي أيضا مِن رجل غريب غير مضمون الجانب يشاركها في ثروتها التي قد تشارك أخاها بدر فيها .. فلتكوني عاقلة أيتها الأم وعد وقاسية القلب أيضا وخالية مِن كل رادع ، وإياكِ وصحوة الضمير ، ولتكوني شاذة التفكير لتجمعي الثروة كلها فى يد ابنك وابنتك

معا كزوجين ، ولتكوني رحيمة أيضا ، ولتعطفي على ياسين ويارا ابني المهندس الذي عاشركِ كثيرا في الحرام لأيامٍ متتابعة والمهندسة المخدوعة التي آوتكِ في بيتها شهورا كخادمة ، فإنْ استقاما فوق طريق شيطانك كان بها ، وإنْ انحرفا يوما فيعقوب الأصفر موجودٌ لمَنْ ينحرف بالمرصاد .

هذا ما حسمتْ إليه الشيطانة الماكرة كل أمورها وخططها الشيطانية القادمة دون أي رادع أو خوف مِن قوانين البشر المتغيرة أو شرع الإله الثابت .. فما هذا الشر الجامح ! .. حقا والله مهما بحث إبليس اللعين بين ركام العاصين والمذنبين عمن يخدم شروره إلى هذا الحد ما وجد طاعة مثل ما وجدها مِن تلك الشيطانة الغجرية وعد المحروس .

لكن كان هناك العثرتان الأكيدتان أمام وعد ، هما المهندسة أحلام وزوجها المهندس معتصم .. عليها أنْ تلتقي بيعقوب الأصفر لتُنْهي أمرهما سريعا ، لكن ماذا لو تقارب ياسين وهايدي مع أصحاب الفيلا الثرية دون علمها قبل أنْ يتحرك يعقوب الأصفر؟ .. وماذا لو تمادى ياسين وهايدي معهم بنية حسنة صادقة فأخبراهم عن الأصل المعيب لهما؟ ماذا لو تمَّ نبش الماضي رجوعا إلى الجذور؟ .. ماذا لو قاد الكلام والتعارف بأي شكل وطريق بين الجميع إلى وعد الخادمة القديمة في فيلتهم الثرية؟ .. إذن لا بد مِن التحرك سريعا سريعا .. لا بد مِن يعقوب الأصفر .. لكن قبل كل ذلك لا بد مِن زيارة سريعة لياسين وهايدي في الرحاب .

دخلتْ وعد شقة الرحاب عليهما بوجهٍ جديد محب وملابسَ جديدة جميلة مع لسانٍ حُلو ، وكثير مِن الرفق والحنان تصبه صدقا لهايدي وخداعا لياسين .. سألها ياسين باستغراب :

- ما سبب كل هذا الرضا؟

ضحكتْ وعد وقالت :

- أم تأتي لأولادها بهدايا .. فما الغرابة في ذلك؟

سألتها هايدي باهتمام :

- لماذا لم يأتِ معكِ الدكتور مالك؟

- ياسين لا يحبه

أسرع ياسين يقول :

- كان هذا في الماضي قبل حفل التخرج .. شعوري تجاهه تغيَّركثيرا

ففرحتْ وعد كثيرا بكلامهما ، وأقبلتْ عليهما تحتضنهما ثم قالت :

- أريد أن أحدثكما في موضوع مهم لكما

نظرا لبعضهما في صمتٍ ثم قالت هايدي لأمها :

- خيريا ماما

فنظرتْ وعد لياسين وقالت :

- لقد لاحظتكَ يا ياسين يوم الحفل تقف وتنظر نظرات معينة إلى بنت جميلة .....

أسرع ياسين يقول :

- هل تقصدين يارا؟

هزتْ رأسها مبتسمة ، ثم نظرتْ إلى هايدي بابتسامة أكبروقالت :

- نعم يارا أخت بدر.. هل تعرفينه يا هايدي؟

ابتسمتْ هايدي وقالت :

- طبعا أعرفه يا ماما

ضحكتْ وقالت في رفق :

- أنا لا أعارضكما في شيء .. بل على العكس أشجعكما على ذلك

أقبلتْ عليها هايدي وقبلتها :

- شكرا يا ماما .. كنا خائفين مِن رد فعلك عندما تعلمين

قالت وعد مسرعة :

- لا تخافا .. أنا موافقة ..... لكن بشرط

سألها ياسين :

- ما هو؟

- هو ألا تخبراهما الآن عني بأي شيء .. اثبتا على القول لهما أو لأهلهما أنَّ أمكما سيدة أعمال .. وأنَّ أباكما كان رجل أعمال .. الناس مظاهركما تعلمان

أسرعتْ هايدي تقول :

- معظم زملائنا بالفعل لا يعرفون عني أو عن ياسين أكثر مِن ذلك .. لكن للأمانة فقد أخبرتُ بعض صديقاتي يوم الحفل بأنَّ الدكتور مالك هو والدي .. أردتُ التفاخر به

وضحكتْ وعد ضحكة عالية وقالت في فخر:

- فعلا مالك فخر لأي أحد .. وأعدكما سوف تتزوجان مَن تريدان

قال ياسين متخوفا :

- لكني أخاف ألا يوافقوا علينا .. فهم أثرياء جدا

أمسكتْ وعد بيده وقالت تطمئنه :

- لا تقلق طالما أنا معك

وكانت الأم الأخرى المهندسة أحلام قد أخبرتْ زوجها المهندس معتصم بعلاقات الحب هذه .. ولأنهما شخصان متحضران إلى درجة لا توصف كأنهما غير شرقيين ، فقد تقبَّل الأب المهندس ذلك في يسر دون تعقيد ، بل طلب مِن يارا أنْ تخبر ياسين بأنه يريد أنْ يراه .

واتصلتْ يارا بياسين تخبره في سعادة غامرة ، وتحدَّد الموعد بعلم الشيطانة وعد .. فقد راقت مجاري المياه بينها وبين ياسين ، وصار ياسين وهايدي يخبرنانها بكل شيء في حياتهما ، واطمأنتْ الشيطانة وعد إلى أنَّ الأمور تسير على ذلك سيرا جيدا .

وكان الموعد في المقر الرئيسي لشركة الأب معتصم شرف الدين .. ذهب ياسين يرتدي ثيابا شبابية مِن أغلى الماركات ، فقد حرصتْ وعد على أنْ يبدو أنيقا ، فاختارت له بنفسها ما يرتديه .

وصل مقر الشركة .. ظهر عليه الذهول والإعجاب منذ أنْ عبر البوابة الرئيسية الضخمة الفخمة لها .. تسلَّم السايس مفاتيح سيارته ليركنها له .. نزل منها وراح ينظر حوله مأخوذا بكل شيء ، المبنى الكبير الأنيق ، والمكاتب الكثيرة ، والموظفين والمهندسين الذين لا عدد لهم ، والمهندسات الفاتنات .. كل شيء كان ينطق بالثراء الفاحش .. أحسَّ بالظفر لأنَّ ابنة صاحب هذه العظمة تحبه .. تدرَّج بين الطوابق والصالات الواسعة مِن استقبال حافل عظيم له إلى استقبال أكثر عظمة حتى وجد نفسه أمام مديرة مكتب الوالد المهندس .. كانت واقفة في ثبات وأناقة تنتظره .. سارت أمامه توسع له الطريق حتى وجد نفسه يقف أمام والد الفتاة التي يريد أنَّ يتزوجها وهو لا يعلم أنَّ الرجل أبوه والفتاة أخته والشركة شركته .

نعم هو أبوه الحقيقي ، وياسين هو صاحب كل هذه الامبراطورية في الحقيقة إنْ مات والده معتصم ، لكنه الآن قد ذهب ليخطب منه أخته يارا ، نعم هي أخته في الحقيقة ، لكن في عالم الغجرية وعد فإنَّ الواقع الحالي يقول إنَّ ياسين ذهب لوالد يارا للتعرف به قبل أنْ يُوَقِّع الأب الموافقة الأخيرة على طلبه .

ومنذ وقعتْ عين الرجل الثري على ياسين عن قربٍ نسي ثراءه ومكانته وعظمته وكل مظاهر الفخامة التي يعيشها ، وشعر بشيءٍ غامضٍ يسري بداخله ، لقد أحسَّ أنه يعرف هذا الشاب ، وشعر أنهما تقابلا كثيرا مِنْ قبل في ظروف أخرى مؤلمة ثم افترقا على أنْ يتقابلا الآن في هذا المكان والزمان ليزول الألم .. بالطبع لم يستطع أنْ يجد تفسيرا لمشاعره تلك ، لكن على كل حال فقد انجذب إلى الولد انجذابا غامضا ساحرا بحيث إنه قد قرَّر ألا يفرط به كزوج لابنته المدللة يارا .. ونفسُ ذاك الإحساس كان لدى ياسين .

طلب له الأب مشروبا باردا مع شيكولاته وحلوى .. تعجب ياسين مِن ذلك ، لكنه لم يسأل .. سأله الأب عن طموحاته وأهدافه المستقبلية ، وسأله مِن بعيد أسئلة غير مباشرة عن آرائه السياسية دون خوضٍ كثير في تفاصيلها ، واختبره في معلوماته الدينية والرياضية .. وجد ياسين يملك ثقافة متنوعة ، فليس هناك موضوع أو مجال لم يتقن الحديث فيه بمستوى معقول ، ثم سأله عن أهله وأصولهم ، فلم يزد ياسين شيئا على ما نهته وعد إليه ، واحتسى الأب بعضا مِن القهوة ثم قال لياسين :

- إنْ شاء الله الخطوة القادمة هي أنْ تتعرف والدة يارا على والدتك

وهنا تلجلج ياسين بعد كامل الثقة التي كان عليها .. قال له :

- طبعا طبعا

فتناول الأب بعضا آخر مِن القهوة وقال :

- لماذا لم نرها يوم حفل التخرج؟

- كانت موجودة .. وكان معها زوجها الدكتور مالك

- للأسف فاتنا شرف التعرف بهما

- بل الشرف لنا نحن

وأشار الأب لياسين أنْ يشرب العصير ثم سأله :

- ما طبيعة الأعمال التي تديرها والدتك؟

- كل شيء .. التصدير والاستيراد .. مزارع الأسماك والدواجن والمواشي .. تصنيع الألعاب الكبيرة .. أو لنقل الآلات الكبيرة لألعاب الأطفال

- آلات كبيرة لألعاب الأطفال ! .. لا أفهم

- الألعاب التي توضع في المولات الكبيرة كمراجيح الأطفال الحديثة بكل أنواعها ..... أمي تصنعها

- نعم نعم .. فهمتُ .. ما شاء الله .. وهل ستعمل معها بعد تخرجك؟

- نعم .. لكنني سأحاول تطوير كل ذلك

ابتسم الأب وقال :

- إنْ شاء الله ستكون رجل أعمال كبير يا ياسين .. تعجبني طريقة تفكيرك

- شكرا لحضرتك .. أنا سعيد جدا بالتعرف عليك .. وأشعر بـ .....

وسكت ياسين ، ولم يستطع أنْ يكمل ، فنظر له الأب ينتظره فأكمل ياسين :

- أشعر أني أعرف حضرتك كثيرا .. أو كأني قابلتكَ قبل ذلك كثيرا .....

فابتسم الرجل ونظر له بحنان قائلا :

- والله أنا أيضا يا حبيبي أشعر بذلك

وتسربتْ دمعتان في نفس الوقت ، الأولى مِن عين ياسين والأخرى مِن عين الأب ، فراح كل منهما يواريها قبل أنْ يلتفت الآخر لها .

وعاد الأب المهندس معتصم إلى زوجته أحلام منشرح الصدر بنفس الانجذاب الغامض الساحر .. لا يكفُّ في كل لحظة عن أنْ يتحدث عن ياسين ، ففرحتْ الزوجة أحلام بكل ما سمعته ثم نامت بعد انشغال طويل ساحر خفي يتعلق بالولد .

ولما غرقتْ في النوم رأته في المنام يتقدم ناحيتها مبتسما وسط ضباب وبيديه إكليل مِن الورود والزهور ذات الألوان الجميلة ، فاستيقظتْ منشرحة الصدر ، وصلَّتْ الفجر ثم جلستْ على مقعدٍ هزاز بجانب نافذة كبيرة تُشْرِف على شارعٍ عريض ممتد مزين بالأشجار الجميلة على الجانبين .. راحت ترقبُ مولدَ اليومِ الجديد عن حركات الباعة والناس والسيارات .. كانت ترى كل شيء جميلا ، فقد زيَّن وجود ياسين بحياتها كل شيء .

وكانت وعد قد عادت مِن الرحاب إلى زوجها الدكتور مالك في شقة الحي السادس .. وجدته جالسا حزينا يفكر في شرود .. سألته بحب ورفق :

- ما لك يا حبيبي؟

نظر لها وقال :

- وعد لقد مللتُ مِن حياتي هكذا

قالت بدلال :

- هل تقصد مِن حياتك معي؟

فوقف وقبَّلها ثم قال :

- لا أقصد ذلك يا وعد .. بل أريد أنْ أعود لعملي

أخذتْ نفسا وتنهيدة ثم قالت :

- أنا موافقة يا حبيبي طالما أنَّ هذا سيخرجكَ مِن الملل

فأسرع يقول في إصرار وعزم :

- ليس هذا فقط .. بل أريد أنْ أستعيد كل ما سلبته حنان مِني

فأسرعتْ وعد توافقه وتشجعه قائلة :

- هذا حقا ما يجب أنْ تبدأ به مِن الغد يا مالك .. البلد فيها قانون وقضاء .. لقد ظلموك ونهبوا كل شيء منك عندما أثبتوا أنكَ مجنون .. أنتَ استسلمتَ لهم مرة .. لكن ليس كل مرة .. يجب أنْ تسترد كل ثروتك .. وتسترد بلال وحبيبة

فقال مالك حالما مسرورا :

- بلال وحبيبة .. لقد اشتقتُ إليهما كثيرا

- مؤكد أنَّ حنان سممتْ فكرهما مِن ناحيتكَ .. لكن في النهاية أنتَ أبوهما

- سأقاضي حنان في كل المحاكم وسأسترد منها كل شيء .. لكنى لن أسامح إخوتي

- وأنا معكَ في كل شيء يا حبيبي

وبالفعل بدأ الدكتور مالك بمساعدة وعد يبحث عن محامٍ يتولى كل قضاياه ، ويسلك كل ما يستطيع مِن أجل استرداد حقوقه حتى عثروا على المحامي المناسب ، ثم بدأ المحامي في العمل .

وذات يوم أراد مالك أنْ يذهب ويُلْقِي نظرة على البيت مِن خارجه ، فقد اشتاق له .. ذهبتْ معه وعد .. أوقفتْ سيارتها ثم نزلا ووقفا أمامه ينظران ، وكان البيت قد صار ساكنا حزينا مهجورا بلا حياة .

وراحت عينا الدكتور مالك تنتقل بشوقٍ شديدٍ بين شرفات البيت ونوافذه وحديقته .. هنا كان يجلس .. وهنا كان يقف .. وهنا كان يلاعب ابنه بلال وابنته حبيبة .. وهنا تعوَّد أنْ يركن سيارته .. وهنا كان يقف مع أصحابه أيام الصِّبا يتسامرون ليلا بينما تُنْعِش وجوههم نسائم الربيع .. وهنا كانت صفوف الفقراء والأرامل تصطف طلبا للمساعدات في كل يوم خميس ، وأخرجته وعد مِن ذكرياته قائلةً بحب :

- مالك يا حبيبي
- نعم يا حبيبتي
- هل تذكر؟
- ماذا أذكر
- كنتُ خادمتكَ في هذا البيت
- أذكريا حبيبتي
- الآن أنا زوجتك
- هذا يشرفني واللهِ يا وعد
- عندما نسترد بيتنا هذا .. هل تعرف ماذا أتمنى بعدها؟
- ماذا تتمنين؟
- أنْ أنجب منكَ عشرة أطفال
- عشرة أطفال !!

- نعم .. لينشروا فيه الحياة والفرحة بعد تلك الكآبة التي سكنته

- واللهِ معكِ حق يا وعد

وفجأة بينما كانا يقفان مستندين إلى السيارة برز لهم حارسُ العمارة المجاورة .. أقبل منها نحو الدكتور مالك مسرعا قائلا في فرح :

- دكتور مالك دكتور مالك .. أنا أيوب .. هل تذكرني؟

خرج الدكتور مِن ذكرياته على صوت أيوب الذي تذكره على الفور ، واحتضنه قائلا :

- نعم أتذكرك يا أيوب .. ما أخبارك؟

- أنا بخير .. لكن والله ينقصنا وجود حضرتك .. حمد لله على السلامة

- الله يسلمك يا أيوب .. ما أخبار أولادك؟

قال أيوب البواب :

- نشكر الله على كل حال .. والحمد لله أني رأيتك بخير .. قالوا عنكَ كلاما كثيرا لم أصدقه

- أنتَ رجل أصيل يا أيوب .. لكن أخبرني ما أخبار عم محمد بواب بيتنا؟

- منهم لله .. طردوه بعد ما فعلوه بكَ لأنه كان يحبك ولا يتوقف عن الحديث عنك

قال الدكتور مالك في أسف :

- ربنا موجود يا أيوب .. وهو لا ينسى أحدا

- ربنا يصبرك يا دكتور .. لقد حزنتُ كثيرا لأجلك .. لكن أكثر ما أثَّر في نفسي أنْ يسكن هذا البيت سكان غيرك وغير أولادك

ووقعتْ الكلمة على أذن الدكتور مالك وقع الصاعقة ، وأراد أنْ يفهم ما سمعه أكثر فقال :

- ماذا تقصد يا أيوب؟
- زوجتك مدام حنان .. الله لا يسامحها
- ماذا فعلتْ أكثر مما فعلتْ؟
- جاءت هنا منذ شهر مع رجل غريب عرفتُ بعد ذلك أنه زوجها .. ثم جاء أشخاص كثيرون في أيام متتالية .. كانوا يعاينون البيت
- وماذا حدث بعد ذلك؟
- باعت البيت

وهنا انتابت مالك حالة هستيرية ، وراح يصيح بصوتٍ عالٍ ناعتا حنان بالكلبة والشيطانة ، واستند على مقدمة السيارة ، وكاد يقع على الأرض وأسرعتْ وعد تُسنده ، وفتحتْ باب سيارتها لتجلسه ، وكان أيوب البواب يساعدها في ذلك ، ثم أمسكتْ بزجاجة ماء وسقته منها ، وهو لا يكفُّ عن أنْ يردد :

- حنان باعت بيتي يا وعد .. الكلبة باعت بيت أبي .. الشيطانة دمَّرت بيت أحمد الأمير

فنظر البواب لوعد في حسرة وقال :

- واللهِ الدكتور معه حق .. الله لا يسامحها .. دمَّرت أسرة كاملة

ونظر الدكتور مالك له يسأله :

- وأخوتي يا أيوب .. هل كانوا معها وهي تبيع البيت؟

فنظر أيوب لوعد ثم قال :

- سمعتُ أنها تركتْ إخوتك بالخارج وحدهم .. كان معها فقط هذا الرجل زوجها

فقال مالك في حسرة :

- آه يا حنان آه .. لم يَكْفِكِ تشريدي .. بل جئتِ لأولادي بزوج أم .. حبيبي يا بلال .. حبيبتي يا حبيبة .. وهل تعرف شيئا عن بلال وحبيبة يا أيوب؟

فنقل أيوب عينيه بين وعد والدكتور مالك وسأله مستغربا :

- ألا تعرف يا دكتور؟

- ماذا أعرف؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله

- أيوب .. ماذا حدث؟

فعاد ونظر نظرات أكثر غرابة وقال لوعد في ألم :

- هل حقا لا يعرف؟

- قُلْ ما عندك .. حرقت أعصابنا

قالتها وعد صارخة فيه ، وتردَّد أيوب رغم ذلك قليلا ، ثم استجمع قواه وقال :

- ربنا يصبرك يا دكتور .. والله لا أعرف ماذا أقول لك

صرخ فيه الدكتور مالك وصرختْ وعد ، فاضطر أيوب البواب أنْ يخبرهما :

- حبيبة هربتْ منهم عندما كانوا بلندن لتعيش مع صاحبها .. وبلال ابنك مات بسبب المخدرات